احتـــــرام الكبيـــــر

الحمد الله على مواهبه التي لا نحصـــيها عددًا،ولا نعرف لها أمدًا، حمدًا نبلغ به رضـــاه، ونســتدر به نُعماه، والشــكر له على منائحه التي أولاها ابتداءً، ووعد على شــكرها جزاء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك، وأشهد أن محمد عبده ورسوله، وصفوته من خلقه وحبيبه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله ـ عز وجل ـ به الغمة، فاللهم أجزه عنا خير ما جزيت نبيًا عن أمته، ورسولاً عن رسـالته ودعوته، اللهم وكما أمنا به ولم نره، فلا تفرق الله بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله، اللهم أوردنا حوضه الأصفى، واسقنا بيده الشريفة شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبدًا.

وبعد .. فإن خطبتنا هذه بعون الله ومدده وتوفيقه ورعايته تدور حول هذه العناصر:

أولًا: احترام الكبير في الإسلام خير شاهد على عظمة هذا الدين.

ثانيًا: الإساءة للكبير دناءة وانحراف عن المنهج المستقيم.

ثالثًا: ثمرات احترام الكبير على الفرد والمجتمع.

العنصر الأول: احترام الكبير في الإسلام خير شاهد على عظمة هذا الدين.

الإســـلام أعطى الكبير المزيد من الرعاية والحقوق، فهي تتراوح بين حقوق معنوية، كاحترامه وحفظ كرامته، وحقوق مادية، كرعاية حاجاته المعيشـية، فهي في مجملها تضـمن حمايته، وتحفظ له مشـاعره كإنسـان مكرم له كيانه، ومكناته التي تليق، ومن هذه الحقوق التي وهبها الله تعالى، تخفيف العبادات الواجبة عنه بما يناسـب قدرات الكبار البدنية والمالية، وربما توسـع هذا الحق فرفعت بعض هذه العبادات الواجبة عنه بالكلية، فخفف

عليهم الصلاة، متى عجزوا عن أدائها على صورتها المطلوبة، وشـــرع لهم أن يؤديها على قدر استطاعتهم، فعند البخاري من حديث أنس بن مـــــالك ﷺ قال: دخل النبي ﷺ ، فإذا حبل ممـــــدود بين الساريتين، فقال: « **مَا هَذَا الحَبْلُ؟** ». قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: « **لاَ، حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ** ».

وكذلك الحال بالنسبة لفريضة الصيام، فمتى عجـــز عنها الكبير، سقط عنه التكليف بالصوم، ورخص له في الفطـــــر، وكلف بالإطعام كبديل عنه، والأصل فيه، قوله تعالى: ﴿وَعَلَى **الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ**﴾. [البقـــــرة، 184]. قال ابن عباس ﷺ: **«هُوَ الشَّيْخُ الكَبِيرُ، وَالمَرْأَةُ الكَبِيرَةُ لاَ يَسْتَطِيعَانِ أَنْ يَصُومَا، فَيُطْعِمَانِ مَكَانَ كُلِّ يَوْمٍ مِسْكِينًا».** **[صحيح البخاري]**.

ومن مظاهر التخفيف على الكبير في عبادة الحج، جواز الإنابة عنه فيه، أخرج البخاري في صحيحه، من حديث ابن عباس ﷺ ، أن امرأة استفتت رسول الله ﷺ في حجة الوداع، والفضل بن عباس خلفه على دابته ـــــ، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يستوي على الراحلة، فهل يقضي أن أحج عنه؟ قال ﷺ: «نَعَمْ ».

فالشريعة الإسلامية قد أصلت لحقوق المسنين في العبادات، فشرطت لوجوبها، قدرة المخاطب على أدائها، ومن ثم وجد الكبار فرصـــة في أداء العبادات بطريقة تتناســـب مع قدراتهم البدنية، وهذه رعاية لحقوق الضعفاء التي لم يشهد لها مثيل في أي تشريع، فعملت على توقير الكبير العاجز واحترامه وتكريمه، ورعاية مقدرته علي الأداء، وتخفيف العبادة بما يناسب استطاعته، وكذا مراعاة مشاعره، فأباح له أداء العبادة على قدر ما تيسر له من استطاعة؛ كي يشعر بالعزة والكرامة.

ثم عَظَّم من حقوق الضعفاء، وعَظَّم من مكارم الأخلاق، فرسول الله ﷺ أرسله ربه رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، ومصدر أمان للضعفاء والمساكين، فأولاهم المزيد من الاهتمام، وأمره ربه سبحانه وتعالى ألا يقهر الأيتام، فقال عليه الصلاة والسلام: « **مَنْ**

مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ أَوْ يَتِيمَةٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لِلَّهِ كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ ».
[مسند الإمام أحمد].

وأرشدنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز إلى حفظ حقوق الكبار لا سيما لو كان من الآباء، فحذر الأبناء عن القليل من الإيذاء، وجعل التأفف من عظائم الأمور، فما فوقه من باب أولى أمر محظور، قال تعالى: ﴿ **وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْساناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما وَقُلْ لَهُما قَوْلاً كَرِيماً** ﴾. **[الإسراء، 23].**

ولم يقتصر الأمر القرآني على حفظ حقوق الآباء المسلمين فحسب، بل وسع دائرة الحقوق، فأوجب على الأبناء حسن المعاملة، ولو كان الأبوين كافرين، فعدل الله تعالى جعل لهم كامل الحقوق، ومن قصر فيها دخل في دائرة العقوق، وإن جاهدوا أبنائهم على الإشراك بربهم، أي عظمة أسمى من هذه العظمة، وأي جمال أعظم من هذا الجمال، وأي كمال أعظم من هذا الكمال، فحقا، هو دين العظمة والجمال والكمال، قال ربنا سبحانه: ﴿ **وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً** ﴾. [لقمان، 15].

فأمر الله ﷻ الخلق بإفراده بالعبادة، وأمرهم بالإحسان إلى الآباء، ومراعاة حقّهم، والوقوف عند إشارتهم، والقيام بخدمتهم، وملازمة ما كان يعود إلى رضاهم، وحسن عشرتهم، ورعاية حرمتهم، وألا يبدي شواهد الكسل عند أوامرهم، وأن يبذل الممكن فيما يعود إلى حفظ قلوبهم، وهذا في حال حياتهم، فأمّا بعد وفاتهم، فبصدّق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما، وحفظ وصيتهما، والإحسان إلى من كان من أهل ودّهما ومعارفهما. فيقال: إنّ الحقّ أمر العباد بمراعاة حقّ الوالدين، وهما من جنس العبد، فمن عجز عن القيام بحقّ جنسه أنّى له أن يقوم بحقّ ربه؟ **[تفسير القشيري].**

وكل هذه المظاهر الإيجابية إنما هي لتعزيز حقوق الكبير، فإظهار احترامه وتقديره من شعائر الإسلام، والقيام بحقوقهم جزء لا يتجزأ من عبادة الله، وخير شاهد عليه أنه سبحانه وتعالى قرن الإحسان إلى الوالدين ولو كانا كافرين بعبادته سبحانه، فليتنبه ذوو العقول والألباب.

العنصر الثاني: الإساءة للكبير دناءة وانحراف عن المنهج المستقيم.

لم يقتصر الأمر في ديننا الحنيف على حفظ حقوق الأبوين فحسب، بل تعداه إلى حفظ حقوق كل كبير، قريب أو غريب، مسلم أو غير مسلم، فالإنسان مكرم على سائر المخلوقات، وحفظ حقوقه مصون من قبل رب الأرض والسملوات، ليس تفضلاً ولا منحة من أحد، بل هي من القواعد الراسخة في ديننا الحنيف، وأن التقصير في جانب الرحمة بالصغير، وعدم ابداء الاحترام للكبير أمر محرم في شريعتنا الغراء، وأن صاحب هذا الفعل المذموم ليس على هدي رسولنا الكريم؛ فعند الترمذي وغيره، قال رسول الله ﷺ: « **لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا** ».

أي: ليس من أهل سنتنا وطريقتنا، وليس المراد به إخراجه عن الدين، لكن فائدة إيراده بهذا اللفظ؛ المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك، كما يقول الرجل لولده عند معاتبته: لست منك، ولست مني أي: ما أنت على طريقتي. [**فتح الباري لابن حجر**].

فقد وقع التحذير من رسول الله ﷺ في الإجحاف على حق كل من الكبير والصغير، فالرحمة بالصغير مطلب شرعي، واحترام الكبير كذلك، فوجب أن يعامل كلاهما بما يليق، فيعطى الصغير حقه من الرفق به والرحمة والشفقة عليه، ويعطى الكبير حقه من الشرف والتوقير.. ومن مظاهر الشرف والتوقير المحمودة التي تصنع تعظيمًا لتعاليم الإسلام في حق الكبير، التوسعة له من أهل المجلس إذا أمكن، وغيرها من صور الاحترام والتوقير. [فيض **القدير**].

وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ أروع المثل في احترام الكبير، وكل ذي هيئة مكرم في قومه، فعند ابن ماجة، قال رسول الله ﷺ: « **إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمُ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ** ». في الحديث

دليل على أن من الطرق الحسنة والسنن الشرعية والآداب المرعية في ديننا الحنيف، إنزال الناس منازلهم، وتكريمهم، فكل كبير مصـــان في ديننا الحنيف، ويجب توقيره بنص هذا الشــرع الشــريف، بل تعدى التعظيم مداه، وبلغ من المنزل أعلاه، فجعل احترام الكبير دليل على تعظيم الله تعالى، وامتثالاً لأوامـــره، فعند أبي داود وغيره، قال رسول الله ﷺ : « **إن من إجلالِ الله إكرامَ ذي الشـــيبَةِ المســـلمِ، وحاملِ القُرآنِ غيرِ الغالي فيه والجافي عنه، وإكرَامَ ذي السُّلطَانِ المُقْسِطِ** ».

ثم بين رسـول الله أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ جزاء احترام الصـغير للكبير، أن الله تعالى يقيض له عند كبره من يجله ويوقره، ويبدي له الاحترام والتقدير، وهذا خير دافع للبشـر أن يحسـنوا جوار الكبير، وأن يقدموا لأنفسـهم في الصـغر ما يصـون كرامتهم عند الكبر، فعند الترمذي، قال رسـول الله ﷺ : « **مَا أَكْرَمَ شَـابٌّ شَـيْخًا لِسِـنِّهِ، إِلا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ سِنِّهِ مَنْ يُكْرِمُهُ** ».

ورسول الله ﷺ خير مثال يحتذى به في التوقير والتقدير، واحترام الكبير.

العنصـر الثالث: ثمرات احترام الكبير على الفرد والمجتمع.

ينتج عن احترام الكبير مجتمع مصون الكرامة، تسمو فيه الفضيلة، وتتلاشى الرزيلة، شـعارهم فيه صـيانة كرامة الكبير، ومراعاة مكانته، دون نظر لدين أو عرق، فالإسـلام لا يعرف الطبقية، ولا العصـبية، ولا العنصـرية، بل هو دين تسـامح وتراحم، وتعاطف، وليس أدل على ذلك، مما ذكره أبو يوســف في كتاب الخراج، من أن **أمير** المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مر بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسـأل الجزية والحاجة والسـن. قال: فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله فأعطه شـيئًا، ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه؛ فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثُمَّ نَخْذُلُهُ عِنْدَ الْهَرَمِ ... قال الراوي: أنا شهدت ذلك من عمر، ورأيت ذلك الشيخ.

ولعل من أهم الثمرات التي تنتج عن احترام الكبير، حل الكثير من المعضلات المجتمعية بأبسط الحلول وأسرعها، دون أن يكون لها من أثرٍ في نفس الخصوم، ولذا انتبه عمر بن الخطاب إلى هذه الفضيلة، فرخص في الصلح بين المتخاصمين.

ومن الشواهد، اختلف ثلاثة، عند الكعبة في أكرم أهل زمانهم، فقال أحدهم: عبد الله بن جعفر، وقال الآخر: قيس بن سعد، وقال الآخر: عرابة الأوسي، فتماروا في ذلك حتى ارتفع ضجيجهم عند الكعبة، فقال لهم رجل كبير: فليذهب كل رجل منكم إلى صاحبه الذي يزعم أنه أكرم من غيره، فلينظر ما يعطيه، وليحكم على العيان، فذهب صاحب عبد الله بن جعفر إليه، فوجده قد وضع رجله في الغرز ليذهب إلى أرضه، فقال له: يا ابن عم رسول الله، ابن سبيل ومنقطع به، قال: فأخرج رجله من الغرز، وقال: ضع رجلك، واستو عليها، فهي لك بما عليها، وخذ ما في الحقيبة، فرجع إلى أصحابه بناقة عظيمة، وإذا في الحقيبة أربعة آلاف دينار، وملابس، وسيف لعلي بن أبي طالب، ومضى صاحب قيس بن سعد إليه، فوجده نائمًا، فقالت له الجارية: ما حاجتك إليه؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به، قالت: فحاجتك أيسر من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس مال غيره اليوم، واذهب إلى مولانا في معاطن الإبل، فخذ لك ناقة وعبدًا، واذهب راشدًا.

فلما استيقظ قيس من نومه أخبرته الجارية بما صنعت، فأعتقها شكرًا على صنيعها ذلك، وقال: هلا أيقظتني حتى أعطيه ما يكفيه أبدًا، فلعل الذي أعطيتيه لا يقع منه موقع حاجته.

وذهب صاحب عرابة الأوسي إليه، فوجده وقد خرج من منزله يريد الصلاة، وهو يتوكأ على عبدين له – وكان قد كف بصره – فقال له: يا عرابة، فقال: قل، فقال: ابن سبيل ومنقطع به، قال: فخلى عن العبدين ثم صفق بيديه، باليمنى على اليسرى، ثم قال والله ما أصبحت ولا أمسيت وقد تركت الحقوق من مال عرابة شيئا، ولكن خذ هذين العبدين، قال: ما كنت لأفعل، فقال: إن لم تأخذهما فهما حران، فإن شئت فأعتق، وإن شئت فخذ.

وأقبل يلتمس الحائط بيده، قال: فأخذهما وجاء بهما إلى صاحبيه، قال فحكم الناس على أن ابن جعفر قد جاد بمال عظيم، وأن ذلك ليس بمستنكر له، إلا أن السيف أجلها.

وأن قيسا أحد الأجواد حكم مملوكته في ماله بغير علمه واستحسن فعلها وعتقها شكوا لها على ما فعلت، وأجمعوا على أن أسخى الثلاثة عوابة الأوسي، لأنه جاد بجميع ما يملكه، وذلك جهد من مقل.

قال سفيان الثوري: قسم سعد بن عبادة ماله بين أولاده، وخرج إلى الشام فمات بها، فولد له ولد بعد وفاته، فجاء أبو بكر وعمر إلى قيس بن سعد فقالا: إن أباك قسم ماله ولم يعلم بحال هذا الولد إذ كان حملا، فاقسموا له معكم، فقال قيس: إني لا أغير ما فعله سعد ولكن نصيبي له. [**البداية والنهاية، لابن كثير**].

وهذا خير شاهد على حسن التربية، ووجوب تدريب النشء على احترام الكبير، كي ينعم الناس بالأمن والأمان، والتقدير والاحترام لمن هو فوقهم، وتتلاشى الخلافات، وتندثر مظاهر الفوضى والأخلاق الذميمة من كافة المجتمعات المسلمة.

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا تَحُولُ بِهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهَا جَنَّتَكَ وَمِنَ اليَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مَصَائِبَ الدُّنْيَا وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا .. واحفظ مصر وشعبها وولاة أمرها من كل مكروه .... اللهم آمين!!

بقلم/ مسعود عرابي .. عضو هيئة التدريس بجامعة الأزهر .. وخطيب مكافأة